

رقم الدرس ٤٠٧
الأربعاء ١٣-١-١٤٣١ هـ

شرح سنن الترمذي كتاب الجنائز

المُلَقَّاة بِجَامِعِ الْمَلِكِ سُعود - رَحْمَةُ اللهِ - بِجَدَّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُور

مُحمَّد بن مُحمَّد المُختار بن مُحمَّد بن مُزید الجُکَنی الشَّنقیطی
المُدَرِّس بِالْحَرَمَینِ الشَّرِیفَینِ

وَعَضُو هِیْئَةِ کِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَمْلَکَةِ الْعَرَبِیَّةِ السُّعُودِیَّةِ

وَمُفَوَّضِ الْإِفْتَاءِ بِمَنْطَقَةِ الْمَدِینَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حَفَظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِیعِ الْمُسْلِمِینَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُراجَع من فَضِيلَةِ الشَّيْخ - حَفَظَهُ اللهُ - .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

يَقُولُ الْمُصَنِّفُ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: [كِتَابُ^(١) الْجَنَائِزِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-].

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ].

[بَابُ: مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْمَرِيضِ].

قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا هَنَّادُ حَدَّثَنَا أَبُو معاويةَ عن الأعمشِ عن إبراهيمَ عن الأسودِ عن عائشةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ)).

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: وفي البابِ عن سعدِ بنِ أبي وقاصٍ، وأبي عُبَيْدَةَ بنِ الجراحِ، وأبي هُرَيْرَةَ، وأبي أُمَامَةَ، وأبي سَعِيدٍ، وأنسٍ، وعبدالله بنِ عمرو، وأسَدِ بنِ كُرْزٍ، وجابرٍ، وعبدالرحمن بنِ أزهرٍ، وأبي مُوسَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا -.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدِيثُ عَائِشَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَتَمَّانِ الْأَكْمَلَانِ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى سَبِيلِهِ وَتَهَجَّجَهُ، وَاسْتَقْبَلَ بَسْنَتَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ شَرَعَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهَذِهِ التَّرْجُمَةِ فِي بَيَانِ أَبْوَابِ الْجَنَائِزِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وهذا الكتابُ من كُتُبِ الْعِبَادَاتِ ذَكَرَهُ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَقِيبَ (كِتَابِ الْحَجِّ). وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَذْكُرُهُ فِي (كِتَابِ الصَّلَاةِ).

وَقَدْ قَدَّمْنَا مَنَاسِبَةً: تَأْخِيرَ أَبْوَابِ الْعِبَادَاتِ إِلَى مَا بَعْدَ كِتَابِ الْحَجِّ كَمَا صَنَعَهُ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ كَتَأْخِيرِ كِتَابِ الصَّوْمِ، وَمِثْلُهُ كِتَابُ الْجَنَائِزِ.

(١) - في المخطوطة: (أبواب).

وعلى كُلِّ حالٍ، يُمكنُ أَنْ يُلْتَمَسَ لِلإِمَامِ التِّرْمِذِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ هَذَا التَّأخِيرَ مِنْ فَقْهِهِ. **ووجهه:** أَنَّ الْعَبْدَ تَتَعَلَّقُ بِهِ: أَحْكَامُ شَرْعِيَّةٍ حَالِ حَيَاتِهِ، وَأَحْكَامُ شَرْعِيَّةٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

فَجَعَلَ كِتَابَ الْجَنَائِزِ، وَأَبْوَابَ الْجَنَائِزِ مُتَعَلِّقَةً بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمِنْ هُنَا جَعَلَ أَبْوَابَ الْعِبَادَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ مَسْرُودَةً عَلَى الْوَجْهِ الْمُعْتَبَرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ - رَحِمَهُمُ اللهُ -، وَأَخَّرَ أَبْوَابَ الْجَنَائِزِ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِمَا بَعْدَ الْحَيَاةِ، أَيْ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِأَحْكَامِ الْمَوْتِ، فَهَذِهِ الْمُنَاسِبَةُ عُذْرٌ لِتَأخِيرِ أَبْوَابِ الْجَنَائِزِ وَهِيَ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ. **وَقَوْلُهُ** - رَحِمَهُ اللهُ -: ((أَبْوَابُ)) يُنَبِّهُ عَلَى أَنَّهُ أَشْبَهُ بِالْكِتَابِ، وَقَدْ بَيَّنَّا لِمَاذَا يَذْكُرُ الْعُلَمَاءُ الْكِتَابَ وَيَذْكُرُونَ الْأَبْوَابَ عَلَى حَسَبِ كَثَرَةِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَلَّتْهَا، وَفِي كُتُبِ الْفِقْهِ عَلَى حَسَبِ كَثَرَةِ الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَبْوَابِ وَالْكُتُبِ.

يَقُولُ - رَحِمَهُ اللهُ -: ((أَبْوَابُ الْجَنَائِزِ)) الْجَنَائِزُ: جَمْعُ (جَنَازَةٍ) وَ(جَنَازَةٍ)، بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَأَصْلُهَا: مِنَ الْجَنْزِ، وَأَصْلُهُ: السَّتْرُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ.

وَالْمَيِّتُ يُسْتَرُ مَحْمُولًا، وَيُسْتَرُ مَدْفُونًا، قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}، فَجَعَلَ مِنَ السَّنَنِ أَنَّ الْمَيِّتَ يُقْبَرُ، أَيْ يُوَارَى الثَّرَى وَيُعَيَّبُ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لِحُرْمَةِ الْجَسَدِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمَرَ بِمُوَارَاةِ جُثَّتِ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْقَلْبِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حُرْمَةِ جُثَّةِ الْآدَمِيِّ مِنْ حَيْثُ الْأَصْلِ، كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - أَنَّ لِلْجَسَدِ حُرْمَةً، قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}، فَهَذَا مِنْ تَكْرِيمِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِبَنِي آدَمَ أَنَّهُ يُقْبَرُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَلَا يُتْرَكُ فِي الْعَرَاءِ تَنْهَشُهُ السِّبَاعُ، وَتَأْكُلُهُ جَوَارِحُ الطَّيْرِ، وَإِنَّمَا مِنْ كَرَمِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى بَنِي آدَمَ عُمُومًا مِنْ أَنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِسِتْرِ أَجْسَادِهِمْ إِذَا مَاتُوا، فَيُوَارُونَ الثَّرَى، كَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي قِصَّةِ قَايِلَ وَهَابِيلَ، وَلِذَلِكَ بَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَ قَايِلَ كَيْفَ يُوَارِي جُثَّةَ أَخِيهِ: {قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعَثَ الْغُرَابَ لِيُعَلِّمَهُ أَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْآدَمِيِّ إِذَا مَاتَ أَنَّهُ يُوَارَى.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْجَنْزَ هُوَ السَّتْرُ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لَهَا: (جَنَازَةٌ)؛ لِأَنَّهَا تَقُولُ إِلَى أَنَّ ثَوَارِي وَتُحْمَلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ثَوَارِي.

وَتُوَارَى فِي الثَّرَى، لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ: (إِنَّهُ الْمَصِيرُ الْأَبَدِيُّ، أَوِ الدَّارُ الْأَبَدِيَّةُ)، بَلْ إِنَّهُ يُوَارَى جَسَدُ الْإِنْسَانِ لِحَيَاةِ بَرَزَخِيَّةٍ: فِيمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَإِمَّا خُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ يُعِيدَنَا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ قُبُورَنَا وَقُبُورَ الْمُسْلِمِينَ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّاتِ. يُقَالُ: (جِنَازَةٌ) بِالْفَتْحِ، وَ(جِنَازَةٌ) بِالْكَسْرِ.

قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: الْأَفْصَحُ بِالْكَسْرِ (جِنَازَةٌ)، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهَا بِالْفَتْحِ لِلْمَيِّتِ، وَبِالْكَسْرِ لِلنَّعْشِ الَّذِي يُحْمَلُ فِيهِ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا أَوْجُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -.

وَقَوْلُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: ((أَبْوَابُ الْجَنَائِزِ)) أَيِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ سَأَذْكُرُ لَكَ جُمْلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ الْجَنَائِزِ، أَيِ أَحْكَامِ الْمَوْتَى.

وَمِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ - نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْزِيَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ وَعَنْ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَيْرَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَسْنَاهُ -، وَمِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ يُمَهِّدُونَ لِأَحْكَامِ الْجَنَائِزِ بَيَانٍ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ:

فَيَذْكُرُونَ: مَا يَنْبَغِي لِلْمَرِيضِ مِنَ الصَّبْرِ وَاحْتِسَابِ الْأَجْرِ، وَتَهْيِئَةِ النَّفْسِ لِلِقَاءِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِحُسْنِ الظَّنِّ بِالْمَوْلَى - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -)).

ثُمَّ يَذْكُرُونَ: مَا يَنْبَغِي عَلَى أَهْلِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ خَاصَّةً الْفُقَهَاءَ، كَمَا نَصُّوا عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَرِيضِ أَنْ يَلِيَهُ أَرْفَقُ النَّاسِ بِهِ وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِ وَرَاحَتِهِ، خَاصَّةً فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ الَّتِي تُعْظَمُ فِيهَا حَاجَتُهُ إِلَى الرَّفَقِ وَاللِّينِ.

وَيَذْكُرُونَ فِي أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: مَا وَرَدَ مِنْ أَحَادِيثِ الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، وَاحْتِسَابِ الْأَجْرِ عِنْدَ فَاطِرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَمَا يَنْبَغِي مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ.

ثُمَّ يَذْكُرُونَ: أَحْوَالَ الْمَوْتِ، وَمَا يَكُونُ مِنَ الْبَشَائِرِ مِنْ عَاجِلِ الْبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِ، مِنْ مَوْتِهِ بِعَرَقِ الْجَبِينِ، وَمَوْتِهِ عَلَى حُسْنِ خَاتِمَةٍ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ)).

وكَذَلِكَ حُسْنُ الْخَاتِمَةِ فِي الزَّمَانِ، كَمَوْتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ، أَوْ مَوْتِهِ فِي شَهَادَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، مُحْتَسِبًا لِلْأَجْرِ، مُقَاتِلًا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا هِيَ السُّفْلَى، كَمَا سَنَّ اللَّهُ وَشَرَعَ فِي كِتَابِهِ وَهَدَى رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

ثُمَّ يَذْكُرُونَ: مَا يَنْبَغِي عَلَى أَهْلِهِ مِنْ تَغْمِيزٍ عَيْنِيهِ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ))، فَأَمَرَ بِإِعْمَاضِ عَيْنِ الْمَيِّتِ، فَسُنَّ إِعْمَاضُ عَيْنِ الْمَيِّتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَالِ الْمُخْتَضِرِ، وَحَالَ مَنْ قُبِضَتْ رُوحُهُ، وَتَسْجِئَتُهُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ مِنَ السُّنَنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

ثُمَّ يَذْكُرُونَ: الْهُدْيَ وَالسُّنَّةَ فِي تَغْسِيلِ الْمَيِّتِ، وَتَكْفِينِهِ، وَحَمَلِهِ، وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ، وَإِدْخَالِهِ الْقَبْرَ وَإِضْجَاعِهِ فِي الْقَبْرِ وَمُؤَارَاتِهِ، وَمَا يَنْبَغِي بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ السُّنَنِ. فهذا الكتابُ كتابٌ جَامِعٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ.

وَقَدْ كَانَ هَدْيُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَبِي وَأُمِّي - أَكْمَلَ الْهُدْيِ فِي أَحْكَامِ الْمَوْتَى، وَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا، وَأَجْلَلِهَا وَأَحْسَنِهَا، فذ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}.

وَنَسْأَلُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَرْزُقَنَا الْعِلْمَ بِذَلِكَ، وَالْفَقْهَ فِيهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ وَالِدَعْوَةَ إِلَى ذَلِكَ مُخْلِصِينَ لَوَجْهِهِ، مُبْتَغِينَ لِمَرْضَاتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَدِيثَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي تَرْجَمَتِهِ: [بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْمَرِيضِ].

يَقُولُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْمَرِيضِ] الثَّوَابُ: هُوَ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ. وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْجَزَاءُ الْحَسَنُ، وَقَدْ يُثَابُ الْإِنْسَانُ وَقَدْ يُجَازَى عَلَى الْإِسَاءَةِ، يُجَازَى الْإِنْسَانُ عَلَى إِسَاءَتِهِ وَإِحْسَانِهِ.

وَالثَّوَابُ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِلْمَرِيضِ وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الْمَرِيضَ يُكْتَبُ لَهُ مَا يَكُونُ فِي مَرَضِهِ مِنْ أَلَمٍ وَمِنْ عَذَابٍ وَمِنْ تَعَبٍ، وَمَا يَلْحَقُهُ مِنْ أَدَى الْعِلَّةِ وَالْمَرَضِ الَّذِي أَلَمَ بِهِ.

وَقَدَّمَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هَذَا الْبَابَ: لِأَنَّ الْمَوْتَ يَسْبِقُهُ الْمَرَضُ غَالِبًا، وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ: (مَرَضَ الْمَوْتِ) وَهُوَ الْمَرَضُ الْمَخُوفُ الَّذِي يَغْلُبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْلَمُ مِنْهُ وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأَمْرَاضِ لَهُ أَحْكَامٌ شَرْعِيَّةٌ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ مَسَائِلُ شَرْعِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَرِيضِ.

وَالْمُحَدِّثُونَ يَذْكُرُونَ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَارِدَةَ فِي الْمَرَضِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: [ثَوَابُ الْمَرِيضِ] إِذَا كَانَ مُسْلِمًا؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرِضَ زُفِعَتْ دَرَجَتُهُ كَمَا أَخْبَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ، وَكُفِّرَتْ خَطِيئَتُهُ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ: فَإِنَّ الْمَرَضَ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ وَوَبَالَ عَلَيْهِ.

وَمِنْ هُنَا يَحْتَسِبُ الْمَرِيضُ الثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

وَمَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي ثَوَابِ الْمَرِيضِ الْمَقْصُودُ بِهِ: تَثْبِثُ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ إِذَا اطْمَأَنَّ بِوَعْدِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ-، وَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَازَّ بِالْحُسْنَيْنِ:

الْحُسْنَى الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ دَرَجَتَهُ، وَيُعْظِمُ أَجْرَهُ فِي الْبَلَاءِ، فَيَنَالُ أَفْضَلَ مَا يَنَالُهُ الْمَرِيضُ فِي مَرَضِهِ. وَالْحُسْنَى الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَسْلَمُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَتَوَهِينِهِ.

وَلِذَلِكَ مَنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ عَذْوِهِ إِبْلِيسَ، وَتَوَجَّهَ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا فِي أَيِّ بَلَاءٍ يَنْزِلُ بِهِ فَإِنَّ هَذَا الْبَلَاءَ سَيَعُودُ عَلَيْهِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَحَادِيثُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تُؤَكِّدُ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ-، فَهِيَ تُثَبِّتُ الْقُلُوبَ، وَتُوجِبُ طُمَأْنِينَتَهَا، بَأَنَّ هَذَا الْبَلَاءَ، وَمَا يُصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ، إِذَا نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ- كُلُّ هَذَا أَجْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَثَوَابُهُ عِنْدَ اللَّهِ كَرِيمٌ، فَيُصْبِحُ الْعَذَابُ رَحْمَةً لِلْعَبْدِ، وَتَجِدُ الْإِنْسَانَ فِي شِدَّةِ الْمَرَضِ، وَشِدَّةِ أَلَمِهِ، يَتَلَدَّدُ بِمَا يَجِدُ مِنْ حِلَاوَةِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَيَقِينُهُ بِرَبِّهِ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْبَلَاءُ، وَأَذَمَّنَ سُؤَالَ اللَّهِ، وَالتَّوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ، عَاشَ لَدَّةً يَتَأَلَّمُ عِنْدَ زَوَالِ الْبَلَاءِ مِنْ فَقْدِهَا، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِاللَّهِ، وَعَرَفُوا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فَتَعَبَّدُوا وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى بَلَائِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، فَاللَّهُ لَا يَخْذُلُ وَلِيَّهُ، وَاللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - يُنَبِّتُ أَوْلِيَاءَهُ، وَلَا أَوْفَى مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، وَلَا أَوْفَى مِنَ اللَّهِ وَلَا أَكْرَمُ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَاطَى الْأَسْبَابَ الَّتِي تُقَوِّي يَقِينَهُ بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فَيُشْرَحُ بِهَا صَدْرُهُ، وَيُطَمِّئُ بِهَا قَلْبُهُ، وَلِذَلِكَ جَاءَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالْبِشَارَةِ، هَذِهِ الْبِشَارَةُ نَحْتَاجُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَجِدَ خَيْرَهَا وَبَرَكَتَهَا، وَحُسْنَ عَاقِبَتِهَا، نَحْتَاجُ مِنْهُ أَنْ يَسْتَشْعِرَهَا، وَأَنْ يَكُونَ حَاضِرَ الْقَلْبِ.

وَمَا يُعِينُ عَلَى الْاسْتِشْعَارِ: أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ يُعَامِلُ مَلِكَ الْمُلُوكِ، وَأَنَّهُ يُعَامِلُ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ يُعَامِلُ إِلَهَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَنَّهُ يُعَامِلُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّهُ مَهْمَا نَزَلَ بِهِ مِنْ

البلاء إذا استشعرَ أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ الْحُسْنَى، وَاسْتَحْضَرَ مَعَانِيَهَا الْكَرِيمَةَ الْجَلِيلَةَ الشَّرِيفَةَ الْعَظِيمَةَ فَإِنَّهُ سَيَعُودُ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هِمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ بَلَاءٍ عَافِيَةً، وَثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ إِذَا رَجَعَتِ الْقُلُوبُ.

فَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ إِذَا اسْتَشْعَرَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ وَالْمَسْأَلَةَ مُعَامَلَةٌ مَعَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَنْ يَكُونَ فِي هَذَا الْكَوْنِ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ إِلَّا وَهِيَ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ إِلَّا بِعِلْمِ اللَّهِ الْجَلِيلِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ، وَنَسَخَ الْأَجَالَ، وَكَتَبَ الْأَعْمَارَ: {وَكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}.

إِذَا اسْتَشْعَرَ هَذِهِ الْمَعَانِي عِنْدَهَا يَعْلَمُ مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي السُّنَّةِ، وَيَعْلَمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ الْمُبَارَكَاتِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ -.

أَنْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ، وَأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوَّلُ مَا خَلَقَ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: أَكْتُبْ، قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ))، {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} * وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ}.

الْمَرَضُ وَالسَّقَمُ وَالْعِلَّةُ تَفْرُغُ بَابَ الْعَبْدِ فَتُؤَذِّنُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَإِذَا اسْتَشْعَرَ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ الدَّاءُ، أَوْ حَلَّ بِهِ الْبَلَاءُ، أَنَّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، قَالَ بِلِسَانِ حَالِهِ وَمَقَالِهِ: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، آمَنَّا وَأَسْلَمْنَا وَاسْتَسَلَمْنَا وَاللَّهُ رَبُّنَا، وَلَا نَظُنُّ بِرَبِّنَا إِلَّا خَيْرًا).

وَلِذَلِكَ كَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ حِينَمَا أَصَابَهُ الطَّاعُونُ قَالَ: (اللَّهُمَّ، اجْعَلْ لِي مُعَاذٍ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ وَأَعْظَمَ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ)، وَهَذَا مِنَ الثِّقَةِ وَقَوَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُؤَقِّنَةِ.

فَإِذَا قَرَعَ الْبَلَاءُ بَابَ الْعَبْدِ تَوَجَّهَ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ، تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ وَقَالِبِهِ، فَلَا يَجْزِعُ، وَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا مَا يُرِضِي اللَّهَ: ((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ))، قَالَهَا - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَهُوَ يُحْسِ بِأَلَمِ الْفِرَاقِ لِفَلَدَةِ الْكِبَدِ وَالْإِبْنِ، وَقَدْ أَسْكَنَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي قَلْبِهِ - بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا،

بِمُجَرَّدِ أَنْ يُقَالَ لِلْإِنْسَانِ: (مَعَكَ مَرَضٌ كَذَا، أَوْ مَعَكَ الدَّاءُ، أَوْ مَعَكَ الْبَلَاءُ)، يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ).

لَنْ تَجِدَ أُمَّةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَثَبَّتْ قَلْبًا وَجَنَانًا، وَأَكْثَرَ تَوْفِيقًا وَتَسْدِيدًا فِيمَا تَقُولُ، مِنْ أُمَّةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، لَنْ تَجِدَ أَصْدَقَ مِنَ أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وَلَنْ تَجِدَ أَكْثَرَ ثَبَاتًا مِنْ قُلُوبِ الْمُؤَقِنِينَ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ الضَّرَاءُ: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}.

ولكن على كُلِّ مُوَفَّقٍ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْبَلَاءَ فِي بَدَايَتِهِ مُؤَلِّمٌ، وَمُزَعِّجٌ وَمُفْلِقٌ، وَلِذَلِكَ قَدْ يُبْتَلَى الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ فَيَصْبِرُ، لَكِنْ يُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِ زَوْجَةً تَقُولُ أُمُورًا تُنْزِلُ بِهَا الْقُلُوبَ، أَوْ بِنْتًا تَقُولُ كَلِمَةً تُزَعِّجُ وَتُؤَلِّمُ، أَوْ ابْنًا يَقُولُ كَلِمَةً، أَوْ قَرِيبًا، أَوْ حَبِيبًا، وَلَكِنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا وَيَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- تَوَجُّهًا صَادِقًا عَزِيزًا كَرِيمًا، وَلَنْ يَحْزِنَ مِنَ اللَّهِ، فَكُلِّ مَا حَوْلَكَ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْحَبِيبِ إِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ، فَوَضَعْتَ السُّنَّةَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ، وَهَدَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَصْبَحْتَ تَتَّبِعُ: كَيْفَ كَانَ يَقُولُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؟ وَمَا الَّذِي أَمَرْنَا أَنْ نَقُولَهُ؟ وَمَاذَا نَقُولُ؟ وَمَاذَا نَفْعَلُ؟ عِنْدَهَا لَا تُبَالِي أَقْبَلْتَ الدُّنْيَا أَوْ أَدْبَرْتَ.

وَلِذَلِكَ لَمَّا نَزَلَ الْمَوْتُ بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ -رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ- قَالَ كَلِمَتَهُ فِي قِصَّتِهِ الْمَشْهُورَةِ، إِلَى أَنْ قَالَ: (فَإِنْ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ، فَوَلَّيْتُ مَا أَمَرَ اللَّهُ مَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ) أَيَّ أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ اخْتَارَ أَنْ أَلْقَاهُ، فَأَنَا لَسْتُ بِنَادِمٍ عَلَى فِرَاقِكُمْ، وَمِنَ الَّذِي يَنْدَمُ وَهُوَ سَيَلْقَى مَلِكَ الْمُلُوكِ الَّذِي يَقُولُ -وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ-: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}!

مَنْ يَقْرَأَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لِكَيْ يَعْمَلَ بِهَا فِي الْبَلَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَالضَّرَاءِ فَهَذَا هُوَ الْمُوَفَّقُ، هَذِهِ السُّنَنُ الَّتِي سَنَقَرَأُهَا، وَالْأَحَادِيثُ الَّتِي نُبَيِّنُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا جَاءَتْ إِلَّا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، لِقَوْمٍ يَعْمَلُونَ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، مَا جَاءَتْ لِكَيْ يَتَرَتَّبَ بِهَا الْإِنْسَانُ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ الْبَلَاءُ حَارَتْ قُوَاهُ، وَسَاءَتْ كَلِمَاتُهُ، وَتَضَجَّرَ وَتَمَلَّمَ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَشْعِرَ هَذَا الْمَعْنَى.

هَذِهِ السُّنَنُ إِذَا سَمِعْتَهَا وَتَعَلَّمْتَهَا فَهِيَ إِمَّا حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ حُجَّةٌ عَلَيْكَ، فَاللَّهُمَّ، اجْعَلْهَا حُجَّةً لَنَا، وَلَا تَجْعَلْهَا حُجَّةً عَلَيْنَا.

بَيَّنَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَظِيمَ مَنْزِلَةِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ، الْمُؤْمِنُ الَّذِي وَحَدَ اللَّهُ، الْمُؤْمِنُ

الَّذِي إِذَا سَأَلَ سَأَلَ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَانَ اسْتَعَانَ بِاللَّهِ، وَإِذَا اسْتَعَاثَ اسْتَعَاثَ بِاللَّهِ، وَإِذَا خَافَ خَافَ مِنْ اللَّهِ الْمُؤْمِنُ الَّذِي حَقَّقَ الْإِيمَانَ، وَحَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالْإِيقَانَ، هَذَا الْمُؤْمِنُ حَالُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ.

يَقُولُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا)) الشَّوْكَةُ: مَعْرُوفَةٌ، يُشَاكُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي قَدَمِهِ، أَوْ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ مِنْ جَسَدِهِ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ الَّذِي أَصَابَتْهُ بِهِ.

يَقُولُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((فَمَا فَوْقَهَا)) لِلْعُلَمَاءِ وَجْهَانِ:

إِمَّا أَنْ يُرَادَ ((مَا فَوْقَهَا)) أَيَّ أَصْغَرَ مِنْهَا فِي الْحُجْمِ وَالْقَدْرِ.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ ((مَا فَوْقَهَا)) أَيَّ أَكْبَرَ مِنْهَا، كَأَنْ يُصِيبَهُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الشَّوْكَةِ، كَالْمِسْمَارِ فِي زَمَانِنَا، وَهُوَ مِنَ الْقَدِيمِ مَوْجُودٌ، قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ} إِنَّهَا الْمَسَامِيرُ، فَالْمِسْمَارُ أَشَدُّ مِنَ الشَّوْكَةِ.

وَأَصَحُّ الْوَجْهَيْنِ -وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ- أَنْ قَوْلَهُ: ((مَا فَوْقَهَا)) أَيَّ أَقْلَ مِنَ الشَّوْكَةِ.

وَصَحِّحَ هَذَا الْوَجْهَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ لَا يَفُوتُ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ أَقْلُ مِنَ الشَّوْكَةِ، فَمَا بِأَلْكَ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الشَّوْكَةِ.

وَالشَّوْكَةُ ضَرْبٌ مِثْلُ، لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّقْدِيرُ وَالتَّحْدِيدُ، بَحِثْ أَتَمَّا تَكُونُ فَيَصِلُ فِي الْأَجْرِ، إِنَّمَا يَكُونُ الْأَجْرُ حَتَّى عَلَى مَا هُوَ أَقْلُ مِنَ الشَّوْكَةِ، وَإِذَا تَوَقَّلَ هَذَا، أَوْ أُعْتَبِرَ هَذَا، وَهُوَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْبَلَاءِ وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا يَسِيرًا، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْأَجْرَ مَكْتُوبٌ لِلْعَبْدِ فِي أَيِّ بَلَاءٍ يُصِيبُهُ، وَلَوْ كَانَ يَسِيرًا حَقِيرًا لَا يَعْزُبُ بِهِ، وَلَا يُبَالِي بِهِ، لَكِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ، وَأَجْرُهُ إِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَهُ عِنْدَ اللَّهِ كَامِلًا.

وَقَوْلُهُ: ((الْمُؤْمِنُ)) هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ تُكْتَبُ لَهُ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبُ، وَالشَّدَائِدُ وَالْمَتَاعِبُ، وَلَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ أَتَمَّا خَاصَّةٌ بِبَلَايَا الْجَسَدِ؛ لِأَنَّ الشَّوْكَةَ تَأْتِي بِبَلَايَا الْجَسَدِ الْحِسِّيِّ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ تَخْصِصَ الْحُكْمِ بِالْبَلَاءِ الْحِسِّيِّ بَلْ يَشْمَلُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيَّ وَلِذَلِكَ قَالَ: ((مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا غَمٍّ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ)) فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَشْمَلُ: الْأَلَمَ الْحِسِّيَّ، وَالْأَلَمَ الْمَعْنَوِيَّ.

وهذا كُلُّهُ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى فَضْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَأَنَّ صَاحِبَهُ فِي عُلُوِّ دَرَجَةٍ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، الْإِيمَانُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلِذَلِكَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَكَمَّلَ إِيمَانَهُ عَظَّمَ جَزَاؤُهُ عِنْدَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فهذا شرطه: وَجُودُ الْإِيمَانِ: ((لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ)) هَذَا خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِ الْمُؤَحِّدِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ: فَإِنَّ بَلَاءَهُ وَعَنَاءَهُ وَشَقَاءَهُ شَرٌّ عَلَى شَرِّ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

((إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً)): رَفَعَ الدَّرَجَةَ، الدَّرَجَاتُ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ تَفْسِيرُ الدَّرَجَةِ أَنَّ بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَالدَّرَجَاتُ: تُطْلَقُ بِمَعْنَى الْحَسَنَاتِ، وَتُطْلَقُ بِمَعْنَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ، وَتُطْلَقُ بِالْمَنَازِلِ عُمُومًا، مَنْزِلَةُ الْعَبْدِ عُمُومًا.

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّغُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ)).

فَالدَّرَجَاتُ عِنْدَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تَأْتِي بِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا مَا يَكُونُ جَزَاءً، وَهِيَ الدَّرَجَاتُ بِالْحَسَنَاتِ.

وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهَا مَا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمَنَازِلِ الَّتِي يُرْفَعُونَ بِهَا، فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذَا التَّفْسِيرُ لِلدَّرَجَةِ أَنَّ بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الرِّفْعَةُ، وَلِذَلِكَ الْعِبَادُ -أَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ- تُرْفَعُ دَرَجَاتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ بِالسَّرَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ بِالضَّرَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ بِالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ بَلَاءَهُ بِالسَّرَاءِ، فَأَعْطَاهُ الْأَمْوَالَ، فَأَنْفَقَهَا عَلَى الصُّعْفَاءِ وَالْبُؤْسَاءِ، فَكَفَّفَ اللَّهُ بِهِ دُمُوعَ الْيَتَامَى، وَجَبَرَ بِهِ الْأَرَامِلَ وَالثُّكَالَى، وَأَحْسَنَ بِهِ وَأَصْلَحَ، فَيَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَتَهُ، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((قَالَ الْفُقَرَاءُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِالْأَجُورِ)).

وَقَدْ تُرْفَعُ دَرَجَةُ الْعَبْدِ بِفَضْلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ثُمَّ بِالضَّرَاءِ، لِمَا يَكُونُ مِنَ الضَّرَاءِ الَّتِي يَصْبِرُ عَلَيْهَا، وَيَحْتَسِبُ الْأَجْرَ فِيهَا.

وَالضَّرَاءُ أَنْوَاعٌ مِنْهَا ضَرَاءٌ فِي دِينِهِ، مِثْلُ: مَا يَكُونُ مِنَ الزَّلْزَلَةِ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ هَذِهِ الْوَسْوَسةِ، وَمُجَاهَدَتِهِ لِلشَّيْطَانِ فِي قَلْبِهِ، فِي فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَصَبْرِهِ عَلَى ذَلِكَ، مُحْتَسِبًا الْأَجْرَ عِنْدَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فَيَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ بِالْفِتْنَةِ فِي سَمْعِهِ، وَفِي بَصَرِهِ، وَفِي قَلْبِهِ، فَيَعْرِضُ عَنْهَا، مُحْتَسِبًا

الْأَجْرَ عِنْدَ اللَّهِ، رَاجِيًا الثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فَتَعْلُو دَرَجَتَهُ، وَتُرْفَعُ عَلَى قَدَرِ هَذِهِ الْفِتَنِ وَالْمَحْنِ الَّتِي يَصْبِرُ عَنْهَا فِي دِينِهِ.

وَقَدْ يُبْتَلَى فِي دِينِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَيُحَدِّدُ وَيُسَبِّ وَيُشْتَمُ وَيُهَانُ وَيُدَّلُّ وَيُسَاءُ الظَّنُّ بِهِ، وَإِذَا شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ، وَيَنْتَقِصُهُ النَّاسُ، وَيُؤْذُونَهُ وَيَحْتَقِرُونَهُ، وَيَرَى بِأَمِّ عَيْنِهِ مَا يُدْمِي الْقَلْبَ فِي كِرَامَتِهِ وَمَكَانَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ، فَيُذَلُّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فِي مَقَامٍ عِزٍّ، وَيُهَانُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فِي مَنْزِلِ كِرَامَةٍ، فَيَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ وَيُؤْمِنُ، وَتَشْتَدُّ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَأَذِيَةُ أَهْلِ الْفِتَنِ وَالْمَحْنِ مِنَ التَّشْكِيكِ وَالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا صَلَابَةً وَقُوَّةً بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَتَوَكُّلاً عَلَى اللَّهِ، وَيَسْتَشْعِرُ أَنَّهُ إِذَا بَعُدَ زَمَانُهُ عَنْ زَمَانِ الصَّالِحِينَ وَكَثُرَ الْأَشْرَارُ، أَنَّ دَرَجَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمَةٌ، وَمَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ كَرِيمَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ، مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ، يَعْبُدُهُ وَيَصْطَبِرُ لِعِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، فَعِنْدَهَا تُرْفَعُ دَرَجَتُهُ، فَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ بِهَذِهِ الْفِتَنِ وَالْمَحْنِ فِي دِينِهِ، وَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي فِتَنِ الدُّنْيَا وَنَحْوِهَا.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ رِفْعَةَ الدَّرَجَاتِ: تَكُونُ بِالسَّرَاءِ، وَتَكُونُ بِالضَّرَاءِ.

وَالضَّرَاءُ تَكُونُ: فِي الدِّينِ، وَفِي الدُّنْيَا.

فِي الدُّنْيَا: بِفَقْدِ الْأَنْبَاءِ وَالْبَنَاتِ، وَالْإِخْوَانِ وَالْأَخَوَاتِ، وَالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ. وَقَدْ يَفْقِدُهُمْ فِي وَظِيفَتِهِ، فَيُنْقَلُ مِنْ عَمَلِهِ، وَتَبْعُدُ مَدِينَتُهُ، وَيَبْعُدُ عَمَلُهُ، وَيَلْقَى الْمَشَقَّةَ وَالْعَنَاءَ، هَذِهِ فِتْنٌ فِي الدُّنْيَا: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، فَهَذَا بَلَاءٌ تُرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتُ، وَلَكِنَّهُ بِالضَّرَاءِ، فَهَذِهِ الضَّرَاءُ فِي الدُّنْيَا.

وَقَدْ تَكُونُ الضَّرَاءُ فِي الدُّنْيَا: حَتَّى فِي شَسْعِ نَعْلِ الْعَبْدِ، فَإِنَّهُ لَوْ مَشَى وَانْقَطَعَ حَدَاؤُهُ كَتَبَ اللَّهُ أَجْرَهُ إِنْ احْتَسَبَ وَرَجَا الثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ، أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنْ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ)) تَعَجَّبَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِرِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، ((إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ))، ((إِنَّ)): بِصِيغَةِ التَّوَكُّيدِ، ((إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)).

وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فِي جَسَدِهِ، فَيَذْهَبُ بَصْرُهُ، وَيَضَعُفُ بَصْرُهُ، فَيَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ أَعِنِّي، اللَّهُمَّ صَبِّرْنِي) تَحُورُ قُوَاهُ، يَضَعُفُ بَدْنُهُ، أَوْ يُبْتَلَى بِالضَّرَاءِ فِي أَحْبَابِهِ وَأَصْحَابِهِ، فَيَتَوَلَّى عَنْهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَيُحَذِّلُهُ النَّاسُ، وَيَعْدُونَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ افْتَقَرَ، أَوْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ، فَلَا يَزَالُ مُؤْمِنًا صَابِرًا، فَتُرْفَعُ

دَرَجَتُهُ، تُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ بِهَذِهِ الْمَصَائِبِ، وَالْمَصَاعِبِ، وَالْمَتَاعِبِ، وَالشَّدَائِدِ، وَالْمَكَائِدِ وَالْأَذْيَةِ، وَالْإِضْرَارِ.

وَتُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ بِحُسْنِ الْعَمَلِ، بِشُكْرِ النِّعَمِ فِي السَّرَاءِ، السَّرَاءِ: كُلُّ مَا يَسُرُّ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، إِذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمًا عَلَّمَهُ أَبْنَاءَهُ وَبَنَاتِهِ، فَمَا يَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ حَلَقَةِ عِلْمٍ إِلَّا وَيَنْشُرُ مَا تَعَلَّمَهُ بِالْعَمَلِ، والدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، فَبِهَذَا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَتَهُ، وَلِذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ الدَّرَجَةَ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}، فَبِهَذَا مِنْ رِفْعَةِ الدَّرَجَةِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

ثُمَّ تَتَفَاوَتْ هَذِهِ الدَّرَجَاتُ بِتَفَاوُتِ النَّاسِ، قَدْ يَكُونُ الْبَلَاءُ وَاحِدًا، وَالشُّوْكََةُ الَّتِي يُشَاكُ بِهَا الْإِنْسَانُ وَاحِدَةً، وَلَكِنَّ الْأَجَرَ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيَّنَّ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ:

يُشَاكُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ كَبِيرُ السِّنِّ، ضَعِيفٌ، يُشَاكُ الْإِنْسَانُ وَمَعَهُ مَرَضٌ تَتَضَاعَفُ بِهِ هَذِهِ الشُّوْكََةُ وَالْمُهْمَا وَأَذَاهَا، وَيُشَاكُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ شَبَعَانٌ رَيَّانٌ فِي قُوَّتِهِ وَفِي جَلْدِهِ وَفِي صِحَّتِهِ وَفِي عَافِيَتِهِ.

كُلُّ لَهُ دَرَجَتُهُ: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ بِمَا عَمِلُوا}، فَبِهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ((سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ)) فَبَيْنَ أَنَّ الَّذِي يُعْطَى الدِّرْهَمَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِرْهَمٌ غَيْرُهُ، فَيَخْرُجُ مِنْ مَالِهِ لِلَّهِ، لَيْسَ كَمَنْ أَخْرَجَ مِائَةَ دِرْهَمٍ مِنْ عَرَضٍ مَالِهِ.

فَهَكَذَا مِنْ تُصِيبُهُ الشُّوْكََةُ وَهُوَ فِي وَضْعٍ يَعْظُمُ بِهِ أَلَمُهُ، لَوْ أَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ، فَضَحِكَ عَلَيْهِ مِنْ حَوْلِهِ هَذَا أَجْرُهُ أَعْظَمُ إِنْ صَبَرَ، وَلَوْ أَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ وَهُوَ فِي مَوْقِفٍ يَسْتَهْزِئُ بِهِ مُسْتَهْزِئٌ مِنْ أَعْدَائِهِ، فَأَجْرُهُ أَعْظَمُ مِمَّا لَوْ أَصَابَتْهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، لَا يُضِيعُ اللَّهُ لِلْعَبْدِ ذَرَّةً: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَرْفَعُ الدَّرَجَةَ عَلَى حَسَبِ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ بَلَائِهِ، قَلَّ الْبَلَاءُ أَوْ كَثُرَ.

((وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَتُهُ)): تَفَضَّلَ اللَّهُ وَتَكَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ بِتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ وَالْخَطِيئَاتِ، وَإِلَّا لَوْ تَرَكْتَ الْخَطَايَا الَّتِي يُصِيبُهَا الْعَبْدُ لِأَهْلَكْتَهُ، وَلِحَالَتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ وَأَرْدَتْهُ

السَّيِّئَةُ: مَا سُمِّيَتْ سَيِّئَةً إِلَّا لِأَنَّهَا تُسِيءُ إِلَى صَاحِبِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنْ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ أَنَّهُ جَعَلَ أَسْبَابًا يُطَهِّرُ بِهَا عَبْدَهُ وَوَلِيَّهُ، فَلَا يَزَالُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ تُكَفِّرُ خَطِيئَتُهُ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَا خَطِيئَةٌ، وَمِنْ هَذَا مَغْفِرَةُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِلْعَبْدِ بِسَبَبِ مَا يُصِيبُهُ.

وَهُنَا الْفَائِدَةُ: أَنَّ اللَّهَ جَمَعَ مَا بَيْنَ الْأَجْرِ، وَغُفْرَانِ الذَّنْبِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَزَاءِ؛ لِأَنَّهُ تَارَةً يَكُونُ الْجَزَاءُ بِالثَّوَابِ بِالْحَسَنَةِ، أَنَّهُ يَفْعَلُ فَيُعْطَى الْحَسَنَةُ، لَكِنْ أَنْ يُعْطَى الْحَسَنَةُ، وَتُكْفَرُ عَنْهُ السَّيِّئَةُ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ.

وَعِنْدَ الْعُلَمَاءِ إِذَا وَرَدَ مِثْلُ هَذَا فِي الْعَمَلِ، أَوْ فِي الْقَوْلِ، أَوْ فِي الْإِعْتِقَادِ، دَلٌّ عَلَى الْفَضْلِ، أَنَّ لَهُ مَرِيَّةً وَفَضْلًا، وَأَنْ يَجْمَعَ لِلْعَبْدِ مَا بَيْنَ ثَوَابِ الْعَمَلِ، وَمَا بَيْنَ تَكْفِيرِ الذَّنْبِ، كَمَا فِي الْحُجِّ، فَإِنَّ مَنْ حَجَّ حَجًّا مَبْرُورًا، كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْحُجِّ، وَأُعْطِيَ فَوْقَ ذَلِكَ غُفْرَانُ الذَّنْبِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)) هَذَا غُفْرَانُ ذَنْبٍ، وَهُوَ أَعْلَى مَرَاتِبِ غُفْرَانِ الذَّنْبِ:

أَنْ يَكُونَ بِغُفْرَانٍ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ.

ثُمَّ يَلِيهِ: غُفْرَانُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذَّنْبِ.

فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُنِيبَ الْعَبْدَ: قَدْ يُنِيبُهُ بِالْحَسَنَةِ عَلَى فِعْلِ الْعَمَلِ، وَرَفْعَةِ الدَّرَجَةِ، وَقَدْ يُنِيبُهُ سُبْحَانَهُ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: بَيْنَ الثَّوَابِ، وَمَغْفِرَةِ الذَّنْبِ، وَأَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَسْبَابِ الْعِقَابِ.

((وَحَطَّ عَنْهُ بِمَا خَطِيئَةً)): وَالْخَطِيئَةُ: مِنَ الْخَطَا، لَيْسَ هُنَاكَ أَعْظَمُ خَطَأً مِنْ خَطَا الْإِنْسَانِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، إِنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُ، وَكَانَ وَلَمْ يَزَلْ بِدُونِ حَيَاةِ اللَّهِ مَيِّتًا، وَأَعْطَاهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ وَالْعَقْلَ، وَجَعَلَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا عَاقِلًا، ثُمَّ يَعْصِي اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَهَذَا مِنَ الْخَطَا.

وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ الْخَطِيئَةُ خَطِيئَةً؛ لِأَنَّهُ خَطَأٌ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَنْبِ رَبِّهِ أَنْ يَعْصِيَهُ، وَأَنْ لَا يُطِيعَ أَمْرَهُ، وَأَنْ لَا يَجْتَنِبَ نَهْيَهُ، هَذَا طَرِيقُ الْخَطَا، وَطَرِيقُ الْخَلَلِ.

وَهِيَ خَطِيئَةٌ سَوَاءٌ كَانَتْ: مِنَ الْأَقْوَالِ، أَوْ الْأَعْمَالِ، أَوْ تَعَلَّقَتْ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، كَالْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ وَنَحْوِهَا -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ-.

قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَطَاءٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا وَصَبٍ، حَتَّى أَهْمُ يَهُمُّهُ إِلَّا يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ سِتِّينَ)).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ فِي هَذَا الْبَابِ.

الشَّرْحُ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ))، ((مَا مِنْ شَيْءٍ))، ((شَيْءٍ)): نَكْرَةٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ.

((يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ)): أَيَّا كَانَ هَذَا الشَّيْءُ، وَالنَّصَبُ: التَّعَبُ.

وهذا الحديث حديث عظيم، وفيه بَشَارَةٌ كَرِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَعَهُمْ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ مُسْتَوْدَعٌ لِلْخَيْرَاتِ وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ.

هذا الحديث أَخْرَجَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الْآخِرَةِ.

هذا الحديث شَرَحَ اللَّهُ بِهِ الصَّدُورَ، وَاطْمَأَنَّتَ بِهِ الْقُلُوبُ، وَهُوَ فَرَحٌ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا حَزَنَ، وَقُوَّةٌ لَهُ إِذَا ضَعُفَ، وَثَبَاتٌ لَهُ إِذَا تَزَلَّزَلَ، وَمَا أَحْوَجَ الْمُؤْمِنَ إِلَى رَبِّهِ، وَمَا أَحْوَجُهُ إِلَى هَذِهِ السُّنَنِ الْعَطْرَةِ النَّصْرَةِ الَّتِي يَشْرُحُ اللَّهُ بِهَا صَدْرَهُ، فَيَحْتَسِبُ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ أَجْرَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: (وَجَدْنَا أَلَدَّ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ).

فَهَذِهِ السُّنَةُ نَصَبٌ، النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَرَادَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّبَرَ وَاحْتِسَابَ الْأَجْرِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَقَامٌ فِي الْبَلَاءِ أَعْظَمُ مِنْ مَقَامِ الصَّبْرِ.

وَذَكَرَ اللَّهُ الصَّبَرَ فِي أَكْثَرِ مِنْ سَبْعِينَ مَوْضِعًا فِي كِتَابِهِ.

وَكَانَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَصِيحُ وَيَقُولُ: (أَلَا إِنَّ مَنْزِلَةَ الصَّبْرِ مِنَ الْإِيمَانِ كَمَنْزِلَةِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ، أَلَا لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ).

فَالصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَكِنَّ هَذَا الصَّبَرَ يَحْتَاجُ إِلَى زَادٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهُوَ مَا وَرَدَ مِنَ الْبَشَائِرِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

أَعْظَمُ النَّاسِ صَبْرًا فِي الدُّنْيَا مَنْ آمَنَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَصَدَّقَهَا، وَاسْتَشَعَرَهَا، وَتَعَلَّمَهَا، وَعَرَفَ كَيْفَ يَعِظُ النَّاسَ بِهَا؛ حَتَّى يُبَيِّنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنَ، فَيَكْتُوبَ لَهُ أَجْرَهُ.

إِنَّ الْعَبْدَ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، فَيَقَعُ طَرِيحًا عَلَى فِرَاشِهِ، رُبَّمَا مَشْلُولًا، رُبَّمَا يَكُونُ مَشْلُولًا وَلَا أَسْعَدَ مِنْهُ قَدْ تَجَدُّهُ مَشْلُولًا وَلَا أَسْعَدَ مِنْهُ، وَتَجَدُّهُ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْ فِرَاشِهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ أَقْوَى مِنْهُ إِيمَانًا وَلَا ثَبَاتًا، وَهَذَا كُلُّهُ بِفَضْلِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، مِنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ عَلَى أَهْلِ الْبَلَاءِ.

فَالْبَلَاءُ كُلُّ الْبَلَاءِ الْجَهْلُ بِاللَّهِ، وَالْبُعْدُ عَنِ اللَّهِ، وَالْكُفْرُ بِاللَّهِ، هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ حَقِيقَةً، أَمَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَأَمْرُهُ كُلُّهُ حَيْرٌ، وَلِذَلِكَ لَا تَسْمَعُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ((وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ)).

النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَبَيِّنُ هَذَا الْعُمُومَ أَنَّهُ لَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ شَيْءٍ، ((مِنْ نَصَبٍ)) النَّصَبُ هُوَ التَّعَبُ

((مِنْ نَصَبٍ)): النَّصَبُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، يَذْهَبُ الْإِنْسَانُ يَبْحَثُ عَنْ رِزْقِهِ وَقَوْتِهِ وَأَوْلَادِهِ فَيَتَعَبُ وَيَضْنَى، وَيَجِدُ الْمَشَقَّةَ وَالْعَنَاءَ، وَهُوَ يَعْمَلُ مِنْ صَبَاحِ يَوْمِهِ إِلَى مَسَائِهِ، يَكْدَحُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجِدَ مَالًا خَالًا يُطْعِمُهُ لِنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ، هَذَا النَّصَبُ وَالتَّعَبُ مَكْتُوبٌ أَجْرُهُ، لَا يُضِيعُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ إِذَا أَحْسَنَ أَجْرَهُ: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}.

فَالنَّصَبُ إِذَا كَانَ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ إِذَا كَانَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ كَمْ تَقْرَأُ مِنْ قَصَصِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَأُئِمَّةِ الْهُدَى وَدَوَاوِينِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ تَجِدُ لَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ مَا تَتَعَجَّبُ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ جَاءَتْ بِنَقْلِ الثِّقَاتِ لَقُلْنَا: إِنَّمَا مُبَالِغٌ فِيهَا، وَلَكِنَّهَا وَاللَّهِ لِمَنْ عَرَفَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا مَعَ اللَّهِ لَا يَسْتَكْثِرُ ذَلِكَ فِيهِمْ.

النَّصَبُ: هُوَ التَّعَبُ، لَا يُصِيبُكَ تَعَبٌ، وَأَفْضَلُ مَا يَكُونُ التَّعَبُ، وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ إِذَا كَانَ فِي طَاعَةٍ.

((وَلَا حَزَنٍ)): الْحَزَنُ: ضِدُّ الشُّرُورِ، وَالْحَزَنُ يَكُونُ بِأَسْبَابٍ: مِنْهَا مَا يَكُونُ دِينِيًّا، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ دُنْيَوِيًّا.

فَيَحْزَنُ الْإِنْسَانُ، وَغَالِبًا مَا يَحْزَنُ، الْحَزَنُ يَكُونُ لَشَيْءٍ مَضَى، فَيَحْزَنُ لِمَا أَصَابَهُ، وَلِذَلِكَ الْحَزَنُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِسَبَبِ النِّقْصِ فِي النَّفْسِ، أَوِ الْمَالِ، أَوِ الْوَلَدِ، أَوِ الْإِخْوَانِ، أَوِ الْأَصْحَابِ، فَيَحْزَنُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ فِرَاقِ النَّعَمِ.

وَالْحُزْنَ وَقَعُهُ عَظِيمٌ عَلَى النُّفُوسِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، وَمِنْ كَرَمِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنَّهُ مَا أُنْزَلَ عَلَى مُؤْمِنٍ بَلَاءٌ، فَاحْتَسَبَ وَأَيَّقَنَ إِلَّا أَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، رُبَّمَا يُفْرِغُ عَلَيْهِ أَضْعَافَ مَا أُنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

الْحُزْنُ يَكُونُ لِفِرَاقِ الْأَشْيَاءِ، وَإِذَا فَارَقَ الْإِنْسَانُ الْعَزِيزَ.

قَدْ يُفَارِقُ: الْمَالَ وَالدُّنْيَا، فَيَكُونُ تَاجِرًا بِحَيْرٍ وَنِعْمَةٍ، ثُمَّ تَنْكَسِرُ تِجَارَتُهُ، فَيَلْبَسُ لِبَاسَ الْفَقْرِ بَعْدَ أَنْ لَبَسَ لِبَاسَ الْغِنَى، وَيَلْبَسُ عِنْدَ النَّاسِ حَالَ الدَّلَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي عِزَّةٍ، فَيَتَذَوَّقُ الْمَرَارَةَ، فَهَذَا حُزْنٌ عَلَى فِرَاقِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ، وَقَدْ يَحْزَنُ لِفِرَاقِ مَنْصَبٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ جَاهٍ، وَقَدْ يَحْزَنُ لِفِرَاقِ الْقَرَابَةِ، كَالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْإِخْوَانِ وَالْأَخَوَاتِ وَفَلذَاتِ الْكَبِدِ، فَهَذَا حُزْنُهُ عَظِيمٌ، فَكُلَّمَا اقْتَرَبَ الشَّيْءُ مِنَ الْإِنْسَانِ كَانَ فِرَاقُهُ أَصْعَبَ، وَلَكِنْ أَجْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمَ.

وَهَذَا الْحُزْنُ يُبَدِّدُهُ اللَّهُ عَنِ الْعَبْدِ وَيُذْهِبُهُ عَنْهُ إِذَا تَعَاطَى أَسْبَابَ الثَّبَاتِ:

أَوَّلُهَا وَأَعْظَمُهَا: الشَّكْوَى إِلَى اللَّهِ: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}. فَالْقُلُوبُ تُعَيِّبُ مَحَبَّةَ أَحِبَّائِهَا، وَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَزِيزًا عَلَيْكَ، وَتُحْسِنُ بِقِيَمَتِهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ فَقْدِهِ، فَيَتَأَلَّمُ الْإِنْسَانُ، وَيَعْظُمُ وَقَعُ الشَّيْءِ عَلَى قَلْبِهِ، فَيَعْظُمُ حُزْنُهُ بِعَظَمِ الْمَصَابِ، وَلِشِدَّةِ وَقَعِهِ قَدْ يَكُونُ قَرِيبًا، وَقَدْ يَكُونُ حَبِيبًا:

إِثْنَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِمَا عَيْنَاكَ حَتَّى يُؤْذَنَا بِذَهَابِ

لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقِّهِمَا: فَقَدْ الشَّبَابِ، وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ ثُمَّ تُفَارِقُهُ، إِذَا اسْتَكَيْتَ إِلَى اللَّهِ بَدَّدَ اللَّهُ حُزْنَكَ، وَلِذَلِكَ قَصَّ اللَّهُ قِصَّةَ يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ فِي شِدَّةِ الْبَلَاءِ حَتَّى ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكَاءِ: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}، وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الْحُزْنُ إِذَا كَظَمَهُ الْإِنْسَانُ، فَإِذَا كَظَمَهُ وَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ صَادِقًا مُوقِنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَثَبِّتُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، أَنْ تَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ، أَيْ مُصِيبَةٍ تَنْزِلُ بِالْإِنْسَانِ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ مَا أَصَابَنِي)، {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} مَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَكَانَةَ ابْنِي عِنْدِي إِلَّا اللَّهُ، وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَا أَجِدُهُ مِنَ الْأَلَمِ وَالشَّجَى وَالْحُزَنِ إِلَّا اللَّهُ، فَاشْتَكَى إِلَى اللَّهِ فَثَبَّتَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَحْسَنَ لَهُ الْعَاقِبَةَ وَالْجُزَاءَ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَفْرَحَهُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا سَرَّهُ إِلَّا وَهُوَ مِنَ اللَّهِ، فَمِثْلًا: هُوَ يُحْسِنُ أَنَّ ابْنَهُ هَذَا كَانَ سُرُورًا لَهُ، وَكَانَ أُنْسًا لَهُ، وَكَانَ، وَكَانَ... مَنْ الَّذِي جَعَلَهُ كَذَلِكَ؟ اللَّهُ.

مَنْ الَّذِي سَأَفَهُ إِلَيْهِ؟ وَمَنْ الَّذِي جَعَلَهُ قُرَّةَ لَعَيْنِيهِ؟ اللَّهُ.

فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَخَذَهُ، أَمَرَ وَكَتَبَ وَقَدَّرَ سُبْحَانَهُ بِأَخْذِهِ أَحْسَنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا اسْتَشَعَرْتَ أَنَّ الْأَبَ وَالْأُمَّ وَالابْنَ وَالْبَنْتَ وَالْأَخَ وَالْأُخْتَ وَالْعَزِيزَ لَدَيْكَ هِبَةً مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ رَحِمَكَ بِهِ، فَإِنَّكَ إِذَا اسْتَشَعَرْتَ أَنَّهُ أَخَذَهُ عَنْكَ، وَأَنَّهُ سَيُخْلِفُ عَلَيْكَ خَيْرًا مِنْهُ لَنْ تَجِدَ لِلْحُزْنِ فِي قَلْبِكَ مَكَانًا، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَهُوَ فِي مَعْنَى اسْتِشْعَارِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، تَسْتَشْعِرُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ بِقَدَرِ اللَّهِ.

إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اسْتَشَعَرَ أَنَّ سُرُورَ الدُّنْيَا كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ لَنْ يَحْزَنَ.

وَإِذَا اسْتَشَعَرَ أَنَّ سُرُورَ الدُّنْيَا بِسَبَبِ هَذِهِ الزَّوْجَةِ الَّتِي فَارَقَهَا.

وَأَنَّ سُرُورَ الدُّنْيَا بِسَبَبِ هَذَا الْوَلَدِ الَّذِي عَمِلَ لَهُ، وَعَمِلَ لَهُ.

وَأَنَّ سُرُورَ الدُّنْيَا بِسَبَبِ هَذَا الْمَدِيرِ الَّذِي نُقِلَ عَنْهُ.

وَأَنَّ سُرُورَ الدُّنْيَا بِسَبَبِ هَذَا الصَّاحِبِ.

أَسْنَدَ هَذَا الْفَضْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ، فَيُحْدِلُهُ اللَّهُ.

اجْعَلْ عَقِيدَةً عِنْدَكَ، وَاسْتِشْعَارًا عِنْدَكَ لَا يَنْقُصُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا بِزِيَادَةٍ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي تَفْضَّلَ عَلَيْكَ، وَهُوَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْكَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، إِذَا اسْتَشَعَرْتَ هَذَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لَنْ يَخْذُلَكَ، وَسَيُعَوِّضُكَ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ تَحْتَسِبُ، وَمِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ.

يَتَجَرَّعُ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ مَرَارَةَ الْفِرَاقِ لِمَنْ يُعِزُّهُ وَيُحِبُّهُ، فَإِذَا تَذَكَّرَ أَنَّ الْأَيَّامَ الَّتِي حَلَّتْ، وَالْمَسَرَّاتِ الَّتِي انْقَضَتْ، الْفَضْلُ فِيهَا لِلَّهِ، وَقَالَ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ: (آمَنْتُ بِاللَّهِ)، فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ، وَثَبَّتَهُ، وَجَعَلَ هَذَا الْفِرَاقَ لَا يُسَاوِي شَيْئًا، يَقُولُ: مَنْ أَبِي؟ وَمَنْ أُمِّي؟ وَمَنْ ابْنِي؟ وَمَنْ أُخِي؟ وَمَنْ أُخْتِي؟ الْفَضْلُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ كَلِمَةُ الصَّابِرِينَ الَّتِي أَفْرَغَ اللَّهُ بِهَا الصَّلَوَاتِ وَالرَّحْمَةَ عَلَى الْمُنْكَوبِينَ وَالْمُصَابِينَ: {إِنَّا لِلَّهِ}، مَا مَعْنَى: {إِنَّا لِلَّهِ}؟ أَنْ تَسْتَشْعِرَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَعْطَاكَ هَذَا الْإِبْنَ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَعْطَاكَ الْبَنْتَ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَعْطَاكَ الْأَبَ وَالْأُمَّ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي عَطَفَ قَلْبَهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ الَّذِي

يَسَّرَ بِرِ ابْنِكَ لَكَ، وَأَنَّ اللَّهَ، وَأَنَّ اللَّهَ... فتقول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} كَلِمَةٌ ثَقِيلَةٌ عَظِيمَةٌ، خَفِيفَةٌ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَةٌ فِي الْمِيزَانِ، عَظِيمَةٌ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْبِرِّ وَالْإِيْقَانِ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ، فَهَذَا مِمَّا يُذْهِبُ الْحُزْنَ.

وَكَذَلِكَ مِمَّا يُذْهِبُ الْحُزْنَ: اسْتِشْعَارُ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ الْحُزَنِ مَسْرَةً، كَمَا جَعَلَ مِنْ بَعْدِ اللَّيْلِ ضِيَاءً:

أَلَا إِنَّ الدَّهْرَ يُسْرِ بِعَدَا عُسْرٍ وَمِنْ بَعْدِ الدُّجَى صُبْحٌ وَنُورٌ
فَلَوْلَا الدَّاءُ لَمْ يُحْمَدْ شِفَاءً وَلَوْلَا اِهْمٌ مَا حُمِدَ السُّرُورُ

اللَّهُ يَعْقِبُ الْمَصَائِبَ بِالْخَيْرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْإِفْكِ: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ}. قَدْ يَسْلُبُ اللَّهُ الْعَبْدَ نِعْمَةً لِكَيْ يُبَدِّلَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، فَحُسْنُ الظَّنِّ وَاسْتِشْعَارُ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ بِحُسْنِ الْخُلْفِ مِنَ اللَّهِ، يُتَبَيَّنُ اللَّهُ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ. الْحُزْنُ وَقَعُهُ عَظِيمٌ، وَلَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْعَبْدُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ:

وَمِنْ أَعْظَمِهَا: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَالنَّظَرُ فِي سِيَرَةِ أَنْبِيَائِ اللَّهِ، مَا مِنْ مَصِيبَةٍ تُصِيبُ الْإِنْسَانَ إِلَّا أَوْجَدَ اللَّهُ سَلَوَتَهَا فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَجَرَّبَ هَذَا فَسَتَجِدُهُ وَاضِحًا جَلِيلًا، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} أَيُّ مَصِيبَةٍ تَتَوَقَّعُهَا إِلَّا وَجَدَ لَهَا شَاهِدًا مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ -، فَالْحُزْنُ وَقَعُهُ عَظِيمٌ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُبَدِّلُهُ وَيُذْهِبُهُ بِتَوْفِيقِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَتَتَّبِعْ هَذِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

((وَلَا وَصَبٍ)): الْوَصَبُ يُصِيبُ الْإِنْسَانَ بِأَسْبَابٍ، وَقَدْ يَجِدُ الْإِنْسَانُ هَذَا الْوَصَبَ وَالتَّعَبَ وَالْعَنَاءَ وَالْمَشَقَّةَ مِنْ كَدْحٍ لِمَصَالِحِهِ أَوْ مَصَالِحِ غَيْرِهِ، وَكُلُّ هَذَا يَكْتُبُ اللَّهُ أَجْرَهُ، وَكُلُّ هَذَا يَكْتُبُ اللَّهُ ثَوَابَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ فِي خَيْرٍ.

وَلِذَلِكَ قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مَهْمُومًا مَغْمُومًا فِي نَصَبٍ وَتَعَبٍ وَوَصَبٍ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ بِهَذَا التَّعَبِ وَالنَّصَبِ وَالْوَصَبِ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ بِلَا ذَنْبٍ، قَدْ تَجَلَّسَ فِي عَمَلِكَ، فَتَجِدُ مِنَ الصِّبْقِ وَالتَّعَبِ وَالْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ، تَنْصَحُ فَتُخَوَّنُ، وَتُؤَذَى وَتُحْتَقَرُ، وَتَصْدُقُ فَتُكَذَّبُ، فَإِذَا بِهَذِهِ الْبَلَايَا كُلِّهَا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَتَكَ، وَيَحُطُّ اللَّهُ بِهَا حَاطِيَتَكَ، هَذَا خَيْرٌ عَظِيمٌ.

وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنَالُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ إِلَّا إِذَا اسْتَشْعَرَ هَذِهِ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

((حَتَّى اَلْهُمَّ يَهْمُهُ)): اَلْهُمَّ: يَكُونُ لِمَا يَأْتِي، وَالْغَمُّ: يَكُونُ مِمَّا مَضَى، يَغْتَمُّ الْإِنْسَانُ مِمَّا أَصَابَهُ، وَيَهْتَمُّ لِمَا هُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ، يَهْتَمُّ لَعِيشَةِ أَوْلَادِهِ، يَخَافُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرَ، يَخَافُ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ، يَهْتَمُّ لِأَمْرِ يُرِيدُ أَنْ يُحْصِلَهُ، تِجَارَةً يُرِيدُ أَنْ يَسْعَى لِتَحْصِيلِهَا، مَنْصِبٌ يُرِيدُهُ، غَايَةٌ مِنْ غَايَاتِ الدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا، فِيَهْتَمُّ يُصِيبُهُ اَلْهُمُّ.

وَالْهُمُّ: بَلَاءٌ وَعَنَاءٌ وَقَلَقٌ، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِالْأَلَامِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

الَّذِي مَضَى كَثِيرًا مِنْهُ حَسِيٍّ، وَكَمَا ذَكَرْنَا فِي الشُّوْكَةِ حَسِيَّةٌ تُصِيبُ الْجَسَدَ.

وَلَكِنَّ الْحُزْنَ وَالْهُمَّ وَالْغَمَّ هَذِهِ كُلُّهَا مَعْنَوِيَّةٌ، تَكُونُ فِي الْقُلُوبِ، يَهْتَمُّ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، أَوْ مُسْتَقْبَلِ أَوْلَادِهِ.

وَقَدْ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ اَلْهُمِّ، فَقَالَ: ((اَللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ اَلْهُمِّ وَالْحُزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ))، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُعِيدَهُ مِنْ اَلْهُمِّ.

وَمِنْ أَعْظَمِ اَلْهُمِّ: هَمُّ الدِّينِ الَّذِي هُوَ بَلَاءٌ عَلَى الْعَبْدِ، وَعَنَاءٌ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَّمَهُ دُعَاءَ قَضَاءِ الدِّينِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ((اَللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ اَلْهُمِّ وَالْحُزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ...)) إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ.

الْمَقْصُودُ: أَنَّ اَلْهُمَّ يَكُونُ لِمَا يُسْتَقْبَلُ، فَبَيَّنَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اهْتَمَّ حَتَّى لَوْ اهْتَمَّ يُرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ سَيَارَةً، أَوْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً، أَوْ يُحْصِلَ وَظِيفَةً فَيَمْكُثُ أُسْبُوعًا يُوعَدُ بِهَا، أَوْ شَهْرًا، أَوْ سَنَةً، هَذَا اَلْهُمُّ كُلُّهُ مَكْتُوبٌ أَجْرُهُ، مَكْتُوبٌ ثَوَابُهُ، صَدَقَ اللَّهُ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، اَللَّهُمَّ، ارْزُقْنَا التَّصَدِيقَ وَالتَّسْلِيمَ، أَخْبَرَنَا أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ فِي مَنْزِلَةٍ وَمَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ شَرِيفَةٍ لَا يَنْقُصُهُ إِلَّا شُكْرُ اللَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-: ((مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي فِي قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ اَلْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)) اَللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَكْرَمَكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا أَكْرَمَ مِنْ اللَّهِ.

تَبَدَّدَتْ هُمُومُ الدُّنْيَا إِذَا ذَكَرْتَ: مِنْ هُوَ اللَّهُ؟

تَبَدَّدَتْ عَنْكَ هُمُومُ الدُّنْيَا، وَتَذْهَبُ عَنْكَ أَحْزَانُهَا وَأَشْجَانُهَا إِذَا عَرَفْتَ: مَنْ هُوَ مَلِكُ الْمُلُوكِ الَّذِي يُرِيدُ بِكَ الْخَيْرَ؟

كُلُّ هَذَا حَتَّى أَهَمَّ وَالنَّصَبَ وَالْوَصَبَ وَالشُّوْكَهَ كُلُّهَا مَكْتُوبَةٌ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ، مَا الَّذِي يَنْفُصُكَ غَيْرُ الْإِيمَانِ وَالنُّوحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، فَتَسْأَلُ اللَّهَ، وَتَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، وَتَتَّقِي بِاللَّهِ، وَتُقَوِّضُ أَمْرَكَ إِلَى اللَّهِ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

((إِلَّا يَكْفِرُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ))، ((بِهِ)): الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ، أَيِ بِسَبَبِهِ.

وَإِذَا كَانَتْ سَبَبِيَّةٌ فَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّكْفِيرَ مُرْتَبِطٌ بِهَذَا الْبَلَاءِ: إِنْ كَانَ عَظِيمًا كَانَ أَهْمُ كَبِيرًا، فَالتَّكْفِيرُ كَبِيرٌ، وَإِذَا كَانَ الْحُزْنَ عَظِيمًا، فَالتَّكْفِيرُ عَظِيمٌ.

وَلِذَلِكَ يَسْتَبْشِرُ الْمُؤْمِنُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ أَوْ يُؤَخَّرَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، هَذَا أَمْرُ اللَّهِ، فَتَنْزِلُ الْمُصِيبَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَتَنْزِلُ عَلَى الْكَافِرِ، فَإِذَا نَزَلَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِ عَلِمَ أَنَّهُ سَيِّئَاتٌ، وَتُكْفَرُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَأَتَمَّا إِذَا عَظُمَتْ فَالْجُزْءُ أَعْظَمُ، وَأَنَّ الْمَغْفِرَةَ لِلذُّنُوبِ وَالرِّفْعَةَ لِلدَّرَجَاتِ أَكْبَرُ، فَيَسْتَبْشِرُ، وَيَتَّقِي بِمَا عِنْدَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُوقِنِينَ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ: فَإِنَّهَا ضِيقٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ الْخَوْفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ وَاثِقٌ بِرَبِّهِ. أَمَّا الْبَلَاءُ وَالشَّقَاءُ فَعَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ}، تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَصَابَتْهُ، وَلَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ حَيْرَانٌ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْصَبُ وَجْهَهُ لِلَّهِ، فَيَتَلَدَّدُ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ، وَيَتَلَدَّدُ بِالثِّقَةِ بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا وَصَبٍ، حَتَّى أَهْمُ يَهْمُهُ إِلَّا يَكْفِرُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ))، ((يَكْفِرُ)): الْكَفْرُ: هُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: يَغْلُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مُتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةِ كَفَرِ النُّجُومِ غَمَامُهَا

أَيِ سَتَرَهَا.

وَسُمِّيَتْ الْمَغْفِرَةُ كَفَّارَةً؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كُفِّرَ وَسُيِّرَ كَانَتْهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، وَلِذَلِكَ تُسَمَّى مَغْفِرَةً، وَتُسَمَّى كَفَّارَةً، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((الصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة، مكفرات ما بينهن)).

فَالْتَّكْفِيرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} فَالْكَفْرُ: هُوَ السَّتْرُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الزَّارِعُ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ يَكْفُرُ الْبَذَرَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَسْتُرُهُ.

فَاللَّهُ إِذَا غَفَرَ الذَّنْبَ سَتَرَهُ، وَيَفْعَلُ الْعَبْدُ الذَّنْبَ فَلَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ -، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَلِذَلِكَ إِذَا كُفِّرَ عَنْهُ الْعَبْدُ وَسُيِّرَ ذَنْبُهُ كَأَن لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، فَلَا يُؤَاخِذُهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَا يُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قَالَ: وَسَمِعْتُ الْجَارُودَ يَقُولُ: سَمِعْتُ وَكِيعًا يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ فِي الْهَمِّ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً إِلَّا فِي الْحَدِيثِ.

وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

الشرح:

(لَمْ يَسْمَعْ فِي الْهَمِّ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً إِلَّا فِي الْحَدِيثِ)، هَكَذَا كَانَ أئِمَّةُ السَّلَفِ، لَا يُدْخِلُونَ فِي نَفْسِهِمْ عِلْمًا إِلَّا وَهُوَ مُوثَّقٌ: {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}، أَنْ تَعِيشَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَا تَعْتَقِدُ أَمْرًا، وَلَا تَجْزِمُ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ دَلِيلٌ وَحُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: إِمَّا بِكِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، خَاصَّةً فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، مَا كَانَ أئِمَّةُ السَّلَفِ يُلْقِي الْوَاحِدَ مِنْهُمْ بِأُذُنِهِ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، الْعَبْدُ الْمُؤَقَّفُ الْمُسَدَّدُ الْمَعْصُومُ بِعَصْمَةِ اللَّهِ، مِنْ دَلَائِلِ الْعِصْمَةِ فِي الْفِتَنِ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ الْعَبْدَ تَجِدُهُ لَا يَأْذُنُ لِعِلْمٍ أَنْ يَقَرَّ فِي صَدْرِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُوثَّقًا مِنْ أَهْلِهِ.

أَمَّا إِذَا وَجَدْتَهُ يُصْغِي، انْظُرْ حَتَّى الْهَمُّ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُونَ شَيْئًا حَتَّى فِي الْهُمُومِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، حَتَّى الْهُمُومَ كَيْفَ يَعْتَقِدُ فِيهَا بِدَلِيلٍ، مَا يَقْبَلُونَ الْأَخْبَارَ هَذِهِ الْمُرْجَفَةَ أَوْ كَذَا، أَبَدًا، يَأْخُذُونَ الشَّيْءَ مُوثَّقًا مِمَّنْ؟ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ، الْوَحْيُ عِلْمٌ، أَغْنَانَا اللَّهُ بِعِلْمِ الْوَحْيِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِذَلِكَ لَنْ نَجِدَ أُمَّةً تَفْضُلُ اللَّهَ عَلَيْهَا، وَأَكْرَمَهَا وَأَجَلَّهَا، وَرَفَعَ قَدْرَهَا بِهَذَا الْعِلْمِ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، عَلَّمَهَا اللَّهُ، وَاصْطَفَاهَا وَاجْتَبَاهَا بِهَذَا الْعِلْمِ، وَفَضَّلَهَا عَلَى خَلْقِهِ بِتَفْضِيلِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَمَا بَقِيَ لِلْمُسْلِمِ إِلَّا أَنْ يَسِيرَ عَلَى هَذَا النَّهْجِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، لَا يَقَرُّ فِي صَدْرِكَ حَتَّى الْهَمُّ أَنَّهُ يُكْفِّرُ لَا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ بِدُونِ عِلْمٍ.

أَمَّا الْيَوْمُ يَأْتِي يَقُولُ لَكَ: (صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَلْفَ مَرَّةٍ يَحْصُلُ لَكَ كَذَا وَكَذَا، وَيَكُونُ لَكَ كَذَا وَكَذَا، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْمَسَاءِ كَذَا وَكَذَا، وَفِي الصُّبْحِ كَذَا وَكَذَا)، بِدُونِ مَا وَرَدَ فِي السُّنَنِ، (إِذَا قُلْتَهَا أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَدَاوَمْتَ عَلَى ذَلِكَ أُسْبُوعًا يَحْصُلُ لَكَ، وَيَحْصُلُ لَكَ) هَذَا مَا يَمْشِي، مَا يَمْشِي عِنْدَ السَّلَفِ، شَيْءٌ يَتَّصِلُ بِالَّذِينَ نَقِيذُهُ بِدَلِيلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فَقَالَ: ((إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ فِيهِمُ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً)) اللَّهُ أَكْبَرُ! حَتَّى فِي الْحُكْمِ عَلَى الْهِمِّ كَانُوا لَا يَحْكُمُونَ عَلَى الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، هَذَا وَاللَّهُ الْعِلْمُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعُلَمَاءُ، الْعِلْمُ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْكَلَامِ، وَلَا بِتَنَمِيقِ الْعِبَارَاتِ، وَلَا بِتَزْوِيقِهَا، وَلَا بِالْحَوْضِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَلِذَلِكَ مَا كَانَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَلَا كَانَ وَرَثَتُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ مُتَكَلِّفِينَ، التَّكَلُّفُ وَالتَّنَطُّعُ وَالْحَوْضُ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ، وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، مَا كَانَ يَفْعَلُونَهُ، فَكَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- مُتَقَيِّدِينَ بِهَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ نَجَاةُ الْعَبْدِ، أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِهَدْيٍ وَدَلِيلٍ وَحُجَّةٍ.

((لَمْ يَسْمَعْ فِيهِمُ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً))؛ لِأَنَّ تَكْفِيرَ الذُّنُوبِ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ، لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ يَعْتَقِدُهُ إِلَّا بِدَلِيلٍ، الْمُكْفِرَاتُ لِلذُّنُوبِ لَا بُدَّ مِنْ اتِّبَاعِ النَّصِّ فِيهَا، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْعَمَلَ أَوْ الْقَوْلَ الْقُلَانِي يُكْفِّرُ إِلَّا إِذَا قَالَ اللَّهُ: إِنَّهُ يُكْفِّرُ، فِي كِتَابِهِ، أَوْ أَخْبَرَنَا فِيمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، هَذَا وَاللَّهُ الْعِلْمُ.

وَوَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ إِمَامُ السُّنَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- الْمُحَدِّثُ الْعَالِمُ، كَانَ إِمَامًا فِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، وَكَانَ آيَةً فِي الْحِفْظِ يَقُولُ: (مَا خَطَطْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ، وَلَا سَأَلْتُ أَحَدًا أَنْ يُعِيدَ عَلَيَّ حَدِيثَهُ مَرَّتَيْنِ)، وَكَانَ رَجُلًا سَمِينًا، فَقَالُوا لَهُ: (كَيْفَ أَنْتَ سَمِينٌ، وَأَنْتَ زَاهِدٌ؟ قَالَ: مِنْ فَرَحِي بِالْإِسْلَامِ)، لَمَّا فَرِحْتُ بِالْإِسْلَامِ سَمِنْتُ، كَانُوا أئمةَ عِلْمٍ وَعَمَلٍ.

رَزَقَنَا اللَّهُ حُسْنَ الْإِهْتِدَاءِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ. اللَّهُمَّ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا يُرْضِيكَ عَنَّا، وَعَمَلًا خَالِصًا لَوَجْهِكَ، مَقْبُولًا عِنْدَكَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.